

الفصل الثالث

النبات والفلاحة والرى فى القرآن الكريم

القرآن .. مصدراً للمعلومات :

تشكل العقيدة الإسلامية المحور الأساسى الذى دار حوله الانتاج الفكرى فى التراث العربى فى كافة مجالاته وأشكاله طوال ما يزيد على أربعة عشر قرناً من القرون الماضية مثلت القرون الخمسة الأولى منها على وجه التقريب من بعد ظهور الإسلام نروة الازهار الثقافى . ومن المعروف أن الانتاج الفكرى الذى شهدته هذه المنطقة لم يكن جهداً قام به العرب وحدهم ، وإنما شاركهم فيه علماء ومفكرون من مختلف البلدان التى انضوت تحت لواء الإسلام ، فهناك فرس وهنود وأتراك وأسبان .. الخ ، ولكنه إنتاج أفرزته حضارة قدح زنادها ظهور الدين الإسلامى ، وأتاح لها النمو والازدهار بما أقامه من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية ومن هنا كانت خطوتنا الحالية محاولة لاستقراء مصدرى الإسلام الرئيسيين ، القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فى الفصل الحالى والفصل التالى بحثاً عن صورة النبات والفلاحة والرى عند العرب .

ولكننا ونحن نفعل هذا ، لا ننطلق من النظر إلى القرآن والسنة على أنهما عملان علميان فى العلوم الزراعية ، فالقرآن كتاب الله لهداية البشر ودستور الحياة ، والسنة هى المفسرة له ، ومن ثم فما يجى من إشارات علمية إنما يجى بشكل يلفت النظر إلى نظام الكون وسننه مما ينبئ بوجود خالق عليم بصير ، كما نرى فى العديد من آيات القرآن الكريم تشير إلى الأمطار والرياح والكثير ممن النباتات والبذر والحصد والزرع ، وما إلى هذا وذلك من مشاهد فى هذا الكون تتصل بعالم الزراعة .

إن العلم بصفة عامة ما كان له أن يقوم إلا وفقاً لتوافر " سنن " ، قوانين تحكم مختلف الظواهر ، وعندما نقرأ فى القرآن آيات تؤكد على وجود هذه السنن

والقوانين ، فالإشارة تجئ لتقرر أمرا عاما ونظرا كليا ، يدفع الإنسان إلى أن يتجه بقلبه وعقله إلى مقرر هذه السنن التي لولاها لما أمكن قيام هذا العلم وذاك ، أما ما هو القانون الذى يحكم هذه الظاهرة أو تلك ، فهذا أمر ترك للإنسان وجهده للكشف عنه .

فهناك سنن كونية على سبيل المثال تجرى على نسق مستقر بتقدير الله العزيز الحكيم (١) .

والسنن فى الأمم جارية على أنها تهلك فى الدنيا إذا انحرفت عن الجادة ، فتلك حتمية تاريخية من قوانين الله ، يقول تعالى (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) النحل / ٣٦ ، وفى سورة فاطر ، آية ٤٤ (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ) آية ٤٤ ، ومثل ذلك فى سورة الروم ، آية ٩ ، وآل عمران ، آية ١٣٧ ، وقوله فى سورة يونس ، آية ١٠٢ (فَمَنْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) ، وقوله فى سورة الأنفال ، آية ٥٣ (ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) ، وقوله فى هود ، آية ١١٧ (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ) ، وقوله فى الإسراء ، آية ١٦ (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .

أما السنن فى الأفراد فجارية بالثواب والعقاب على الصلاح والفساد ، مع فضل الله بانتظار التوبة وتأجيلهم لعلمهم يصلحون ، وله الكلمة العليا فى مصابيحهم ، يقول تعالى فى سورة فاطر ، آية ٤٥ (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) ، ومثل هذا فى سورة النحل ، آية ٦١

ثم أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية ، وإرشادات إلهية ، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ، وكتاب تشريع سماوى يشمل نظاما كاملا للحياة ، وبين احتوائه على عدد من الإشارات العلمية الدقيقة التى وردت

فى مقام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته فى إيداعه للخلق ، وعلى إفاء ما قد خلق ، وإعادة كل ذلك من جديد ، وذلك لأن الإشارات تبقى بيانا من الله - خالق الكون ومبدع الوجود - فلا بد وأن تكون حقا مطلقا ، لأنه لا أدرى بالخليقة من الخالق سبحانه وتعالى (٢) .

والقول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول يحتاج إلى مناقشة ، لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله ينأى بالناس عن واقعهم فى كل عصر ، حتى لا يستسيغوه فيملوه ويهملوه ، وثبات القرآن ، وهو من السمات البارزة له ، لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية ، حتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة ، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية ، ولا يتوافر للإنسان منها فى عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة ، وتباين العصور ، وتقدما واضمحلالا ، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علما فى مجال الكونيات - بصفة عامة - من الأمم السابقة ، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بكاملها للانكسار والتدهور .

لكننا مع هذا لا نستطيع أن نتقبل بعض مظاهر الغمز واللمز التى تحفل بها بعض كتب المستشرقين على الرغم من اعترافنا وتقديرنا لهذا الجهد العلمى الرائع الذى قاموا به فى سبيل البحث عن التراث العربى وتحقيقه ونشره ودراسته . وليس هنا مجال مناقشة هذه القضية ولذلك سوف نقصر على عدد محدود من الأمثلة لواحد فقط وهو المستشرق الروسى " كزاتشكوفسكى " الذى عرف بالدقة العلمية والمنهجية الطيبة ، فقد كتب يقول : " .. ومن الجلى أن محمدا كان رجلا أميا ، وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيرا لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع " (٣) . " ... وهى فكرة متداولة بين الساميين الغربيين ، وعرفها محمد ولو بصورة مبهمه " . " ومما زاد فى اللبس أكثر ، أن هذه المسألة - المتعلقة بالبحرين - لم تكن واضحة لمحمد نفسه وأن ألفاظه فى عدد من المواضع تحمل طابع الغموض " (٤) .

بمثل هذا الإصرار ، يتحدث المؤلف عن القرآن الكريم متأثراً بعقيدته في أنه كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، كما لاحظت د. عائشة عبد الرحمن في تعليقاتها الملحقة بالترجمة العربية للكتاب ، وقد جهد المستشرقين قبله في الحديث عن صنع محمد (ﷺ) لهذا القرآن ، لكن كان الظن بمثل كراتشكوفسكى أن ينأى ببحثه عن كل ما يتعلق بالدين ، وهو من قوم قد اطمأنوا منذ ثورتهم البولشفية إلى إخراج المسألة الدينية من الحياة . وكتابه قد تم تأليفه سنة ١٩٤١ بعد نحو ربع قرن من تلك الثورة ، ومع ذلك لم يبرأ منطقته من هذه اللوثة التي تسمح عمل الجماهرة من المستشرقين وتعطى لمتهميهم كل الحق في إنكار صنيعهم وعدم نزاهة بحوثهم ، بل فسادها منهجياً وعلمياً (٥) .

وكما أننا لا نستطيع أن نلزم كراتشكوفسكى بعقيدتنا في القرآن وحيا منزلا ، لا يستطيع هو أيضا أن يقدم على البحث عقيدته في أن هذا القرآن من صنع محمد (ﷺ) . وإن فقد كان ينبغي أن يتجرد البحث العلمي في النص القرآني متحررا من سيطرة مذهبه ليتمكن أن نلتقى جميعا على أصول منهج حر ، وضوابط علمية في النظر والمناقشة ، دون تدخل من عقيدة أو مذهب لا نلتقى عنده أبدا .

وهذا الإحجام للمسألة الدينية في البحث ، هو المسؤول عن أخطاء علمية تورط فيها المؤلف من حيث يدري ولا يدري (٦) :

فاعتقاده أن القرآن من كلام محمد ، جره إلى محاولة الربط بين المادة العلمية في القرآن وبين الثقافة المتاحة لمحمد (ﷺ) في بينته وعصره ، فلما تعذر عليه ذلك ، مضى يلتمس العلل ويتكلف الأسباب لرد هذه المادة العلمية إلى أصول يغلب عليها الوهم والافتعال .

ونفهم أن يجهل كراتشكوفسكى مهمة القرآن من حيث هو رسالة سماوية ، ولكننا لا نفهم كيف غاب عنه أن محمد (ﷺ) كان في الواقع التاريخي - ولا نلزمه بالعقيدة الإسلامية - نبيا دعا إلى دين جديد . وهذه الصفة لا بد منها لفهم طبيعة النص القرآني ، كتاب نبي الإسلام ، لكيلا يتورط المؤلف فيما تورط فيه من أخطاء حين

تداول القرآن وكأنه يناقش كتابا فى الجغرافيا أو فى علم النبات أو غيرهما ، وراح يحاسبه - مثلا - على ما أسماه نظريات جغرافية جاءت فيه ولو أنه قدر الحق التاريخى الذى يعرف ، فى الواقع الثابت ، محمدا إلا نبيا ، لما غابت عنه طبيعة النص القرآنى من حيث هو رسالة نبى وكتاب دين ، وليس كتابا فى الجغرافيا أو النبات أو الفلك أو الجيولوجيا (٧) .

آية من آيات الله :

وأظهر ما تجئ بشأنه آيات القرآن الكريم التى تتناول موضوعنا ، هى البرهنة على أن النبات والماء هما آيات من آيات الله ، يؤكد وجودهما وأشكالهما على أن الله هو الذى أوجدهما وأنه قادر على محوهما وتغيير مسارهما :

(إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٨).

فهذه الطريقة فى تنبيه الحواس والمشاعر ، جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون العجيب التى تفقدنا الألفة جدتها و غرابتها و ايعاءاتها للقلب والحس ، وهى دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذى يراه أول مرة مفتوح العين ، منتسبه الحس ، حى القلب ، وكم فى هذه المشاهد المكررة من عجيب ، وكم فيها من غريب ، وكم اختلجت العيون والقلوب وهى تطلع عليها أول مرة ، ثم ألفتها ففقدت هذه المفاجأة ، ودهشة المباغثة ، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب (٩) .

وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها .. كلها مشاهد لو أعاد الإنسان تأملها - كما يوحى القرآن للقلب المؤمن - بعين مفتوحة وقلب واع ، لارتجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها ، تلك الحياة التى تتبعث من الأرض حين

يجودها الماء .. هذه الحياة المجهولة الكنه ، اللطيفة الجوهر التي تدب في لطف ، ثم تتبدى جاهرة معلنة قوية .. هذه الحياة من أين جاءت ؟ كانت كامنة في الحبة والنواة ! ولكن من أين جاءت إلى الحبة والنواة ؟ أصلها ؟ مصدرها الأول ؟ إنه لا يجدى الهرب من مواجهة هذا السؤال الذى يلح على الفطرة .. لقد حاول المنكرون تجاهل هذا السؤال الذى لا جواب عليه إلا وجوب خالق قادر على إعطاء الحياة للموات . وحاولوا طويلا أن يوهموا الناس أنهم فى طريقهم إلى إنشاء الحياة ، بلا حاجة إلى اله ! ثم اخيرا إذا هم ينتهون إلى نقض أيديهم والاقرار بما يكرهون : استحالة خلق الحياة (١٠) .

والله سبحانه وتعالى قد جعل فى تربة الأرض القدرة على تشرب الماء (التميؤ) مما يؤدي إلى زيادة حجمها وانتفاخها وانتفاضاها إلى أعلى بمجرد نزول الماء عليها ، ويساعد على ذلك ما يقوم به الماء من طرد للغازات الحبيسة بين رقائق المعادن الصلصالية ، ومن تحويل لحبيبات الصلصال الدقيقة إلى الحالة الغروية وهى حالة متحركة ، تتدافع فيها الجسيمات المادية الدقيقة بأقدار غير متساوية فى جميع الاتجاهات ، وما يتم أثناء ذلك من عمليات إحلل كيميائية ، ومن عمليات تنافر بين الشحنات الكهربائية المتشابهة فى كل من جزئى الماء المزوج القطبية وأيونات العناصر المختلفة الموجودة فى التربة أو على أسطح الراقات الصلصالية ، ويعين على ذلك أيضا إنبات البذور وانتعاش غيرها من صور الحياة وبقاياها بمجرد وصول الماء إليها فتحدث زيادة كبيرة فى حجمها وفى نشاطها الحيوى مما يؤدي إلى ارتفاع التربة إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتتساق لتفسح طريقا سهلا لخروج السويقات المندفعة من داخل البذور النابتة إلى ما فوق سطح الأرض (١١) ، ولذلك قال سبحانه وتعالى (وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) الحج / ٥

ويقول تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعَ مَتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَتَخْيِيلٍ صِنُونٍ وَغَيْرِ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (١٢) .

ففي هذه الآية ، دليل آخر من عالم النبات والماء على قدرة الله عز وجل ، فالماء إذا كان سببا في الحياة ، فإنه يجرى في ذلك على سنة إلهية حكيمة تدل على الوحدة والرحمة. ثم أنه آية في تأثيره في العوالم الحية أيضا ، فإن هذا النبات يسقى بماء واحد هو مصدر حياته ، ثم هو مختلف في ألوانه وطعومه ورائحته ، فتجد في الأرض الواحدة نبتة الحنظل مع نبتة البطيخ متشابهتين في الصورة متضادتين في الطعم . وتجد النخلة وتمرها ما تذوق حلاوة ولذة ، وتجد في جانبها شجرة الليمون الحامض والسنارنج وتمرها ما تعرف حموضة وملوحة ، وتجد بالقرب منها شجرة السورد لها من الرائحة ما ليس للنخلة وما يخالف في أريجها زهر النارنج ، بل يوجد في الشجرة ما له زهر زكى الرائحة ، فإذا قطعت الغصن الذى فيه هذا الزهر تتبعث منه رائحة خبيثة ، فتلك السنن - التى يتكون وفقها المطر وينزل - جارية بنظام واحد دقيق ، وكذلك طرق تغذى النبات بالماء هى جارية بنظام واحد ، فوحدة النظام وعدم الخلل فيه تدل على أن مصدره واحد ، فهو من هذه الجهة يدل على الوحدانية الكاملة ، ومن جهة ما للخلق فيه من المنافع والمرافق يدل على الرحمة الإلهية الشاملة ، وقل مثل هذا فيما بث الله تعالى في الأرض من كل دابة ، فإنها آيات على الوحدة ودلائل وجودية على عموم الرحمة (١٣) .

ويذكر رشيد رضا أنه كان قد كتب كتابا في العقائد ألفه باقتراح للشيخ محمد عبده واطلع عليه فأعجبه ، استغل فيه حياة النبات لشرح عقيدة التوحيد ، وإننا نود إيراده هنا لأننا لم نر في كتب التفسير ولا في كتب الكلام والعلوم كلاما ممتعا في هذا المقام . وهو وارد بأسلوب السؤال من تلميذ مبتدئ في المدارس والجواب من أخيه وهو عالم عصرى طيب نعبّر عنه بـ (الشاب) ، ومن أبيه ، وهو عالم صوفى نعبّر عنه بـ (الشيخ) وهذا نص منه : (١٤) .

قال التلميذ: تنبت الشجرة صغيرة ثم تنمو حتى تكون فى زمن قريب أضعاف ما كانت ، فمن أين تجئ هذه الزيادة ؟ وكيف تدخل فى بنيتها وتتفوق فتأخذ الساق منها حظا ، والفروع حظا ، وكذلك الورق والثمر ؟

الشاب : إن هذه الزيادة التى تدخل فى بنية النبات بعضها من الأرض وبعضها من الهواء والنبات جسم حى ، فهو بضعة الحياة يأخذ من عناصر الأرض والهواء ما يصلح لغذائه فيغذى به كما يتغذى الحيوان بما يأكله ويشربه وينمو بذلك كما ينمو الحيوان .

التلميذ : إننا لا نرى فى الأرض ولا فى الهواء شيئا من مادة النبات ولا من صفاته كاللون والطعم والرائحة .

الشاب : انه يأخذ منها العناصر البسيطة ، فيأخذ من الهواء الأوكسجين والنتروجين (ازوت) وكذلك الكربون ، وبعض الأملاح التى توجد فى الهواء عادة وإن لم تكن جزءا منه ، ويأخذ من الأرض ما يناسبه من عناصرها الكثيرة كالبوتاسا والفوسفور والحديد والجير والأملاح ، ويكون مما يأخذه من ذلك غذاؤه بعمل كيميائى منتظم يعجز عن مثله أعلم علماء الكيمياء . وقد علمت أن جميع هذه الصور المختلفة الأشكال والصفات إنما اختلف بعضها عن بعض باختلاف التركيب الكيماوى وعمل الطبيعة ، حتى أن مادة السكر هى عين المادة التى يتكون منها الحنظل ، والماس والفحم الحجرى من عنصر واحد .

الشيخ : إن النبات لا حياة فيه ، ولو كان يعمل عمله الذى نكرت فى معنى النمو وكيفية مما تقتضيه صفة الحياة التى أثبتها له ، لكان عالما بعمله ومختارا فيه ، ولم يرد بهذا نقل ولا أثبته عقل ، فنمو النبات إنما يكون بمحض إرادة الله تعالى وقدرته .

الشاب : لا دليل على أن للنبات علما ولا على أنه لا علم له ، فهو فى عمله كأعضاء الإنسان وغيره من الحيوانات التى تعمل أعمالا منتظمة لا شعور للإنسان بها ولا هى صادرة عن علمه وتدبيره كأعمال المعدة والكبد فى هضم الطعام ، فليس

عندنا دليل على أن للمعدة علما خاصا ولا على أنه لا علم لها ، ولكننا نعلم أنها عضو حى بحياة صاحبه ، فإذا أبين منه ثم وضع فيه الطعام ، فإنه لا يعمل ذلك العمل . وكون كل شى بقدره الله ، لا يمنع أن يكون لكل شى سبب ، فإله تعالى حكيم لا يعمل شيئا إلا بنظام (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (١٥) .

التلميذ : من أين تكون هذه الحياة النباتية للنبات ؟ .. فهل المادة التى يتغذى بها النبات حية فيأخذ منها حياته ؟

الشاب : كلا ، إن مواد التغذية ليست حية بنفسها ، ألا ترى أن الإنسان لا يأكل شيئا من الحيوان إلا بعد إمامته بنحو الذبح والطبخ ، ولا يأكل نباتا إلا بعد إزالة حياته النباتية ولو بالقطع والمضغ فقط ؟ وكذلك النبات . ولكن فى النواة التى تتولد منها الشجرة .. حياة كامنة مستعدة لتنمو بالتغذية على ما نشاهد فى الكون ، وهذه الحياة مجهولة الكنه والمبدأ حتى اليوم ، وأمرها أخفى من أمر المادة فى كنهها ومبدئها .

الشيخ : إذا كنتم فى علمكم هذا أرجعتم جميع العناصر التى تألفت منها مادة الكون إلى شى واحد عرف أثره ، ولم تعرف حقيقته .. فما بالكم تقولون فى حياة بعض المواد كالنبات ... وتقولون : لا نعرف مبدأ حياته وحقيقتها وتقولون عند هذا الحد ولا تقولون : إن الذى صدرت عن ذاته جميع الذوات هو الحى القيوم الذى صدرت عن حياته كل حياة .

الشاب : لا شك أن الوجود الواجب القديم هو حى كما أنه قيوم ، فإذا كان معنى قيومته أنه قائم بنفسه ، وكل شى قائم به ، فكذلك هو حى بذاته ، وكل ما عداه من الأحياء فهو حى به ، أى أنه يستمد حياته منه ، لأن هذه الأحياء كلها من نبات وحيوان هى حادثه ، والحادث : هو ما كان وجوده من غيره لا من ذاته ، فالحياة أمر وجودى ، بل هى أعلى مراتب الوجود ، فهل يقول عاقل : إن تلك الذات الأزلية قد صدرت عنها أشياء كلها بلا حياة ! ثم إن بعضها أحدث لنفسه حياة ؟ هذه سخافة لا تخطر فى بال عاقل ، فالإنسان أرقى الأحياء على هذه الأرض لأن من أثر حياته

العلم بالكليات والإرادة والتدبير والنظام ، وهو عاجز عن هبة الحياة لنفسه ولغيره ،
فغيره من الأحياء أحق بالعجز !

ومن أبرز آيات الله في عالم النبات ، تلك الإشارات المتعددة التي جاءت
بالقرآن الكريم إلى عملية التكاثر في النبات ، وينبغي التذكير بأن التكاثر في عالم
النبات يتم عن طريقين : الكاثر التناسلي ، والتكاثر اللاتناسلي . والحق يقال بأن
الطريق الأول هو الوحيد الذي يستحق أن يعطى لقب التكاثر لأنه يحدد امتدادا حيوانيا
غرضه ظهور كائن جديد مماثل للذي منحه النشأة.

والتكاثر اللاتناسلي هو تكاثر بسيط يتحقق من انقسام جسم إلى أقسام ، يحاول
أحدها حال انفصاله عن الأصل ، الاستحصال على أن يعيده شيئا بالذي انفصل عنه
ويعتبره كل من Mongenet و Guillermond " حالة خاصة بالنمو " وعملية
زرع النسول تعطينا مثلا لذلك ، فالفرع المقطوع من نبتة إذا زرع بطريقة مناسبة
في أرض ، ثم سقى ، تعود إليه الحياة بنمو جذوره . وبعض النبات أعضاء مختصة
بهذه المهمة بينما يحمل البعض الآخر آلات التناسل - إذا صح هذا التعبير - كأنها
البذور (هي ثمرة امتداد التكاثر التناسلي) (١٦) .

والتكاثر التناسلي للنبات يتفاعل بتلاحح عناصر الذكورة والأنوثة المنتمية إلى
تكوينات مولدة ملتقبة جميعها في نفس النبتة أو منفصلة وهذه وحدها نراها في القرآن
(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى) (١٧) .

وأزواج جمع زوج ، ومعناه الأولى : ما يكون مع آخر مثله زوجا وينطبق
أيضا على الزوجين (العروسين) وعلى زوج الأحذية .

ويقول تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (١٨) . وأيضا : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (١٩) وأيضا (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ) (٢٠) .

إننا نعلم بأن الثمرة هي نهاية دورة التكاثر لدى النباتات العالية ذات التنظيم الأكثر كمالاً وتركيباً ، يسبقها مرحلة الزهرة مع أعضاء الذكورة (اللقاح) والأنوثة (البويضات) التي بعد حملها اللقاح ، تعطى الثمرات التي تخرج الحب بعد نضجها ، فكل ثمرة إذن تتطلب وجود أعضاء الذكورة والأنوثة ، وهذا ما تريد الآية القرآنية قوله (٢١) .

ومع ذلك ، فإنه ينبغي أن يلاحظ بأن بعض الأنواع تأتي من زهر غير ملقح (ثمر رجعى) كما هو الحال فى الموز ، وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والعنب . وهذه الثمار رغم ذلك ، منحدره من نباتات ذات جهاز تناسلى .

واكتمال عملية التكاثر يتم بامتداد تفرغ الحبة بعد انفتاح قشرتها الخارجية (التي يمكن أن تكون متركرة فى النواة) التي تسمح بخروج الجذور التي تنتشعب فى الأرض ، وهذا لضرورة المحافظة على الغرسة ذات الحياة البطيئة للحبة ولتنمو وتعطى كيانا جديدا . ويشير القرآن إلى عملية الإنبات هذه فى قوله : (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) (٢٢) .

والقرآن الذى أكثر من ترداد وجود هذه الأزواج فى عالم النبات يسجل مفهوم الزوجية هذا فى إطار أعم : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبَتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) (٢٣) .

الدورة الهيدرولوجية :

وهذه المياه التي يتغذى بها النبات والحيوان على سطح هذه اليابسة ، كلها من المطر ولا يستثنى من ذلك أرض بلد مثل مصر فيقال أن حياتها بماء النيل دون المطر ، فإن مياه الأنهار والعيون التي تنبع من الأرض كلها من المطر ، فهو يتخلل الأرض فيجتمع فيندفع . وقد امتن الله تعالى بذلك علينا وأرشدنا إلى آيته فيه بقوله : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) (٢٤) ، فالبحيرات التي هي ينابيع النيل من ماء المطر والزيادة التي تكون فى أيام الفيضان

هى من المطر الذى يمد هذه الينابيع ويمد النهر نفسه فى مجراه من بلاد السودان ، وكثرة الفيضان وقتله ، تابعة لكثرة المطر السنوى وقتله هناك .

وربما يكون مفيدا أن نقف وقفة أخرى أمام ما ورد بسورة النور ، آية ٤٣ ، فما كشف عنه العلم الحديث يعيننا على فهم أدق للآية :

قال تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه لم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يخطف الأبصار) .

فقوله تعالى " ألم تر أن الله يزجى " ، يعنى أن الريح تزجى السحاب ، أى تسوقه سوقا رقيقا ، وهذا ما يمثل الخطوة الأولى من تكوين السحاب الركامى .

(ثم يؤلف بينه) ، فالتأليف هو الجمع مع الترتيب والملاءمة ، وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٥) يقول " أى يجمعه عند انتشائه ليقوى ويتصل ويكثف " ، وهو ما يمكن أن ينطبق على المرحلة الثانية للسحاب الركامى .

(ثم يجعله ركاما) ، فالركم فى اللغة يأتى بمعنى إلقاء الشئ بعضه فوق بعض ، ومن ثم فهذا النص يشير على المرحلة الثالثة فى تكوين السحاب الركامى .

(فترى الودق يخرج من خلاله) ، الودق هو المطر عند جمهور المفسرين ، وهو المرحلة الأخيرة المتمثلة فى نزول المطر فى السحاب الركامى .

ويقول سبحانه وتعالى : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) المؤمنون / ١٨ .

فكلمة (أسكنناه) فى الآية مشتقة من " سكن " ، وقد ترجمت بمعنى " تبتت " ، لكن معناها المباشر " أقررناه " فى الأرض أو جعلناه فى خلالها أى فى باطنها .

وفى ضوء المعرفة العلمية الحالية ، فإن كلا المعنيين مقبول ، فكما أن مياه المطر تتسائل أو تتخلل التربة ، فيمكنها أيضا أن تصير مياهها جوفية حيث يمكن أن تمكث بضعة أسابيع أو بضعة آلاف من السنين . وكلمة " سكن " يمكن أن تعنى

أيضا " الهدوء " أو " الاستقرار " ، وأى وصف أفضل من هذا لمياه جوفية تبدو مستقرة فى الأعماق المظلمة للأرض دون إزعاج ، وتتحرك بايقاع بطئ جدا وهادئ ، وفى هذا بيان حقيقة أن المياه الجوفية ذات طاقة أقل من المياه السطحية (٢٦) .

وتعطى آية أخرى فى القرآن الكريم بيانا واضحا جدا عن أصول الينابيع والأنهار ، قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) الزمر / ٢١ .

فتعبير " فسلكه ينابيع " فى الآية مأخوذ من " سلك ونبع " ومعنى " سلكه " أدخله وجعله يمضى ، ومعنى " نبع " تفجر ، ولذا سميت العين ينبوعا . " الينابيع " القنوات والممرات المائية فى باطن الأرض ، أو الثغرات والفتحات التى يتفجر منها الماء ويخرج إلى سطح الأرض فيكون الجداول والأنهار والسواقي والعيون .

ويقول المولى عز وجل : (وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) الحجر / ٢٢ .

فمفتاح هذه الآية هو ترتيب إنزال الماء لسقيا الناس على إرسال الرياح " لواقح " ، والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية ، إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر ، لا إنزال الماء . أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء ، فقد تحتم أن يكون " اللواقح " معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك شبيها بلقاح الأحياء من زرع وحيوان ، كما يكون بينه وبين نزول الماء صلة ، ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب (٢٧) .

وقد بين العلماء أن للكهربائية أثرا فى تكاثف السحاب مطرا ، وأن الرياح لها أثر فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحاب وسحاب ، إذا تذكرنا ذلك علمنا أن المراد من وصف الرياح بأنها لواقح ليس هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين طلوع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات ، ولكن هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب ،

فالتلقيح هنا هو بين قطيرات وقطيرات ، أو بين سحب وسحاب ، لا بين زهر وزهر أو نبات ونبات ، والشبه تام بين هذا التلقيح النباتى وذلك التلقيح الكهربائى .

وقد استغل الإنسان منذ أقدم العصور المياه المتوافرة على سطح الأرض سطحية كانت أم جوفية ، واستخدم فى تلك منشآت مائية مختلفة لزال آثارها باقية تدل على قدم راسخة ومعرفة فنية جيدة لحركة المياه وانتقالها على سطح الأرض ، هذا الانتقال والحركة للمياه يدرس فى وقتنا الحاضر تحت عنوان : علم (الهيدرولوجيا) ^(٢٨) ويقوم هذا العلم على مفهوم رئيسى أساسى هو مفهوم الدورة الهيدرولوجية .

والمقصود بالدورة الهيدرولوجية أن الماء يرسم خلال حركته على سطح الأرض دورة مغلقة بهذا الاسم ، وتتم هذه الحركة بتأثير عاملين اثنين : الطاقة الشمسية الساقطة على سطح الأرض من جهة والنقالة من جهة ثانية ، فبتأثير الأشعة الشمسية تتبخر كميات كبيرة من البحار والمحيطات حيث تتكاثف على شكل سحب وضباب تنتقل بعدها هذه السحاب على سطح الأرض ، وباتجاه اليابسة فى أغلب الأحيان بتأثير التيارات الهوائية وحركة الغلاف الجوى حيث تهطل بسبب عوامل معينة على شكل مطر أو ثلجى ، تغذى هذه الأمطار والثلوج الأنهار والبحيرات والينابيع والمياه الجوفية . وهذه المياه تعود بدورها إلى البحار والمحيطات من جديد لكى تغلق الدورة المائية .

وتبدو الآيات القرآنية المتعلقة بدورة المياه فى حياة الإنسان لدى قراءة بعضها تلو البعض الآخر فى هذه الأيام معبرة عن أفكار واضحة جدا وذلك ببساطة لأننا أصبحنا فى عصرنا نعرف مع زيادة أو نقص فى الدقة والتحقيق ماهية دورة المياه فى الطبيعة ^(٢٩) .

وسوف نقسم الآيات الكريمة المتعلقة بموضوعنا إلى قسمين : أولهما يتناول الحلقات الأولى من الدورة الهيدرولوجية ، وهى التبخر والانتقال والهطول ، وثانيها : الآيات الدالة على أصل المياه الجوفية والسطحية أو الحلقة الأخيرة من الدورة :

(أ) التبخر والانتقال والهطول : يقول الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) (٣٠) .

فالرياح تبشر بالمطر ، كما فى قوله تعالى آية أخرى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ) (٣١) أما المقصود بـ (أقلت سحابا) أى حملت الريح سحابا تقالا بالماء أى أنقلت بحمله .

- كذلك يقول عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) (٣٢) .

كسفا : جمع كسفة ، وهى القطعة . الودق : المطر ، فالآيات تحمل دلالة واضحة ويكفى أن نعبر عنها بالصورة المبسطة التالية ليزداد الأمر وضوحا وجلاء (رياح مرسلة ، تحمل سحابا ، يساق إلى اليابسة ، فينزل به المطر) . ويلاحظ دقة العبارة القرآنية حيث يقول عز وجل : فأنزلنا به الماء . والضمير فى (به) عائد على السحاب ، حيث أن السحاب هو واسطة لإنزال المطر ويعتبر كمكثف لبخار الماء الذى تحمله الرياح خاصة فى الأمطار الغزيرة (٣٣) .

(ب) التسرب وأصل المياه الجوفية والسطحية : ومن الآيات الواردة فى هذا الخصوص الآية التى سبق أن أشرنا إليها والتى يقول فيها سبحانه وتعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَابِرُونَ) (٣٤) .

ويقول القرطبى فى تفسير هذه الآية : " هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما امتن به عليهم ، ومن أعظم المنن ، الماء الذى هو حياة الأبدان ونماء الحيوان ، والماء المنزل من السماء على قسمين : هذا الذى ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه فى الأرض ، وجعله فيها مختزنا لسقى الناس يجدونه عند الحاجة إليه وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار .. وقد قيل أن قوله : " وأنزلنا من السماء ماء " وما يستخرج من الآبار .. وقد قيل ان قوله : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) إشارة إلى الماء العذب ، وأن أصله من البحر رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر

إلى السماء حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ، ثم أنزله إلى الأرض لينتفع به ، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته * (٣٥).

- كذلك قال الله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (٣٦) .

ويفسر القرطبي هذه الآية أيضا بقوله (٣٧) أن السماء المشار إليها تعنى السحاب والماء المقصود به المطر ، أما قوله تعالى " فسلكه " أى أدخله فى الأرض وأسكنه فيها ، كما قال (وأسكناه فى الأرض) ، والينبوع عين الماء ، (ثم يخرج به) أى بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض (زرعه) هو للجنس ، أى زروعا شتى لها ألوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ، قال الشعبي والضحاك : كل ماء فى الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون .

ويعلق (بوكاى) على هذا الموضوع فيقول أننا إذا أخذنا بالاعتبار ما كانت عليه مختلف المفاهيم القديمة فى هذا الموضوع ، فإننا نستبين بأن ليس فى المعطيات القرآنية ما يدعم مفاهيم وثنية شائعة ، كان نصيب النظرة الفلسفية فيها أكبر بكثير من نصيب التجربة والملاحظة ، ولئن كانوا قد نجحوا فى الماضى تجريبيا بالحصول على معارف عملية نافعة فى مستوى محدود لتحسين رى الأراضى ، فقد كان لهم بالمقابل فى دور المياه على العموم أفكار قليلة القبول فى هذه الأيام (٣٨) .

ولأجل هذا ، فقد كان يسيرا ، التصور بأن المياه الجوفية يمكن أن تكون ناتجة عن تسرب اندفاعاتها فى باطن الأرض ، ومفهوم Vitruve الذى دافع عن هذه الفكرة فى روما فى القرن الأول قبل المسيح يروى كإحدى غرائب العهود القديمة . وهكذا فقد كان للناس أثناء قرون طويلة ظهر فيها عصر الوحي القرآنى أفكار خاطئة عن نظام المياه .

ويقول تعالى أيضا : (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) (٣٩) كما يقول : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) (٤٠) .

إن أهمية الينابيع وإرفادها بماء المطر السالك إليها المثبتة في هذه الآيات وغيرها تثير انتباه بوكاي وتجعله يقف ليذكر الأفكار التي كانت منتشرة في القرون الوسطى في الغرب كأفكار أرسطو التي يذهب فيها إلى أن الينابيع تتكون من امتدادات البحيرات الجوفية وأن " م. ر. ريمونييراس " الأستاذ في المدرسة الوطنية للهندسة الريفية للمياه والغابات ، يصف في مادة (علم المياه) من الموسوعة العالمية أهم المراحل لتكون المياه ويذكر الأعمال الرائعة القديمة للرى وبخاصة في منطقة الشرق الاوسط وسجل بأنه كانت تتحكم فيها التجارب الفردية ، إذ أن الأفكار كانت ناشئة عن مفاهيم خاطئة . وتابع يقول : وينبغي انتظار النهضة (ما بين ١٤٠٠ - ١٦٠٠ تقريبا) لتترك الأفكار الفلسفية المحضنة المجال لتجارب مرتكزة على الملاحظة الموضوعية للظواهر المائية . وقد خرج ليونارد دفنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) على ما أثبتته أرسطو ، كما أن لبرنارد باليسى تفسيرا دقيقا لدور المياه وبخاصة إمدادات الينابيع بمياه الأمطار في حديثه الرائع عن طبيعة المياه والينابيع طبيعية أو صناعية (٤١) .

ويتساءل بوكاي : أليس هذا بالضبط ما وجدنا في الآية (٢١) من سورة الزمر التي تذكر سلوك مياه الأمطار نحو النابيع في الأرض ؟

وعن الرياح وأثرها تقول الآية ٩ من سورة فاطر (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور) .

إن كلمة " تثير " هنا إشارة إلى أثر الرياح في تكوين السحاب ، وقد ينصرف ذهن القارئ إلى حمل السحاب من بلد إلى بلد ، لأنه يفترض أن السحاب موجود دائما وليس في حاجة إلا أن يُحمل ، وحمل الرياح السحاب مهم ، ولكنه مُشار إليه في الآية بكلمة " فسقناه " ، إذ أينما كان السحاب ، فإن انتقاله أيا كان داخل كله في معنى السوق ، وإن لابد أن يكون المعنى المعبر عنه بكلمة " تثير " غير المعنى المستفاد من السوق (٤٢) .

وإذا رجعنا إلى القاموس وجدنا من معانى مصدر " نار " ، السطوع ، وظهور الدم ، وأثاره واستثاره : غيره ، فمعانى الإثارة المقابلة لهذه المعانى الثلاثة بينها معنى واحد مشترك هو الإظهار ، فالريح إذن تُظهر السحاب بعد خفائه ، ثم يسوقه الله إلى حيث يشاء ، فالإظهار هنا يقصد به التكوين ، أى تسبب الكثاف .

فإذا تذكرنا أن السحاب هو بخار ماء كان قبل كامنا فى الهواء غير المشبع ، أو الهواء فوق المشبع الخالى من الأيونات أو الغبار ، ثم ظهر بالكثاف لما انقلبت حالة الهواء من حيث التشبع أو من حيث نسبة الأيونات فيه ، وتذكرنا أن هذا الانقلاب لا يكون إلا بفعل الريح ، سواء أكان يحملها البخار إلى المناطق العلوية الباردة ، أو يحملها الغبار والأيونات إلى تلك المناطق ، اتضح لنا أن المراد بإثارة الرياح للسحاب هو أثر الرياح فى تكون أو تكوين السحاب لا فى نقله ^(٤٣) .

مجالات للبحث العلمى :

ويخطئ من يظن أن معنى العلم الذى يُحث عليه فى القرآن يقتصر على المعنى المراد بعلوم الدين فى الوقت الحاضر ، وإنما يمتد ليشمل " جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق من شئ ، ويشمل الخلق هنا ، كل موجود فى هذه الكون ذى حياة أو غير ذى حياة " ^(٤٤) وهذا المعنى يفهم من هذه الآيات العديدة التى تحض الإنسان على التفكير والدراسة لما فى الكون من مظاهر مختلفة ، مثال ذلك :

- (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^(٤٥) .

- (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(٤٦) .

- (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ^(٤٧) .

والحكمة من هذا هى حرص القرآن الكريم على عدم الاعتماد على الفطرة وحدها فى الاعتراف بالخالق ، ومن ثم فهو يحرك فى نفوس الناس طلب النظر

والاعتبار . وأن اتباع إرشادات القرآن وأوامره تجعل من الخير كله للمسلم أن يسبح بعقله في هذا الوجود ، وأن يتطلب المعرفة لإدراك كنه السموات والأرض والإحاطة بهذا النظام الباهر وهذه المعارف هي التي تزيد إيمان المؤمن وتطمئن قلبه (٤٨) .

ومن هنا فقد جاء القرآن بآيات عديدة تحث الإنسان على أن يتناول النباتات والفلاحة والرى بالبحث والدراسة ، نسوق منها الأمثلة الآتية .

- (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٤٩) .

- (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) (٥٠) .

- (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (٥١) .

- (أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (٥٢) .

- (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (٥٣) .

- (فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥٤) .

- (.. وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (٥٥) .

- (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥٦) .

- (.. وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) (٥٧).

- (وَتَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (٥٨) .

- (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ نُورُ الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) (٥٩) .

- (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ أَلَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُعْرِمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) (٦٠) .

- (والتين والزيتون وطور سينين) (٦١) .

- (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَبَاتٍ أَلْفَافًا) (٦٢) .

وحقا كما يقول رشيد رضا ، أن الذى لا يعرف أسرار هذه الكائنات وإنما ينظر إلى ظواهرها فيراها كما تراها العجاوات ، فهو لا يفهم معنى كونها آيات ، لأنه أهمل آلة الفهم التى امتاز بها وهى العقل ، ولذلك أخبر الله تعالى عن هذه الأجناس كلها أن فيها (لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، فإنهم هم الذين ينظرون فى أسبابها ويدركون حكمها وأسرارها ، ويميزون بين منافعها ومضارها ، ويستدلون بما فيها من الإتيان والأحكام ، والسنن التى قام بها النظام على قدرة مبدعها وحكمته ، وفضله ورحمته ، وعلى استحقاقه للعبادة بدون غيره من بريته ، وبقدر ارتقاء العقل فى العلم والعرفان يكمل التوحيد فى الإيمان ، وإنما يشرك بالله أهل الناس عقلا ، وأكثرهم جهلا (٦٣) .

ولقد جنى بعض العلماء على المسلمين فى الماضى جناية بعيدة الاثر فى حياتهم ، جناية صرف الناس عن الكون وأساراه ، فهذا لا يتفق وأغراض القرآن ، فضلا عن أن هذه الدراسات ، رفع التعمق فيها أمما من أمم العالم ومكن لها فى الأرض فاستولت على أمم تفوقها عددا أو ثروة واستوت على عروش العز

والسلطان ، وإهمال هذه الدراسات سلب العزة من أم كانت خليفة بالعز ، بتاريخها ودينها وثورتها (٦٤) .

وعندما بدأ الاحتكاك الثقافى وبدأ دعاة الاصلاح والتطوير يطالبون بتدريس العلوم الحديثة ، قاومهم بعض من يرفعون لواء الدين متناسين أنها بضاعتنا ردت إلينا ، ومن هنا كان تساؤل رشيد رضا الاستكاري : " أليس أكبر خذلان للدين وجناية عليه ألا ينظر المنتسبون إليه فى آياته التى يوجههم كتابه إلى النظر فيها ورشدهم إلى استخراج العبر منها ؟ أليس من أشد المصائب على الملة أن يهجر رؤساء دين كهذا الدين العلوم التى تشرح حكمة الله وآياته فى خلقه ويعدها مضغفة للدين أو ما حية له خلافا لكتاب الله الذى يستدل لهم بها ويعظم شأن النظر فيها " بلى وانهم ليصرون على تقاليدهم هذه ، وليس عليها حجة ، وإنما اتبعوا فيها سنن قوم قبلهم " (٦٥) .

وقد يزعم بعض هؤلاء الذين يعادون علم الكون باسم الدين أن النظر فى ظواهر هذه الأشياء كاف للاستدلال بها ومعرفة آيات صانعها وحكمته فمثلهم كمثل من يكتفى من الكتاب بروية جلده الظاهر وشكله من غير معرفة ما أودعه من العلم والحكمة . نعم إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهى المفصح عن وجود الله وكماله وجلاله وجماله وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (٦٦) . وبقوله : (وَلَوْ إِنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) (٦٧) فكللمات الله فى التكوين باعتبار آثارها ومصداقها هى أحاد المخلوقات والمبدعات الالهية ، فإنها تتطق بلسان أفصح من لسان المقال لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون وللعلم معادون ، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية والأفسية المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية ، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهما ، لكان الله سبحانه استدلى فى كتابه بالأدلة النظرية الفكرية ، وذكر الدور والتسلسل وغير ذلك من الاصطلاحات الكلامية ، ولم يستدل بالسماء والأرض والليل والنهار والفلك والمطر وتأثيره فى الحياة وغير ذلك من المخلوقات

التي أرشدنا القرآن إلى النظر فيها واستخراج الدلائل والعبر منها : " ألا أن شه كتابين : كتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن ، وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذاك بما أوتينا من العقل ، فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون " (٦٨) .

وسيلة للتعليم :

المتصفح لبعض كتابات المربين يستطيع أن يلحظ بوضوح ميلهم الظاهر لتشبيه العملية التربوية بعملية الفلاحة والزرع فيقولون أن المعلم مثله مثل الزراع وأن التربة مثلها مثل التلميذ وأن الزرع نفسه كمثل ناتج التعلم والتربية ، ومن ثم فكما أن الزراع لا بد له من معرفة طبيعة بنوع التربة بحيث لا يضع فيها من البنور إلا ما تنهياً له كذلك فالمعلم ينبغي له أن يكون على دراية بطبيعة التلميذ وإلا يلقي له إلا ما يتناسب مع طبيعته من مواد التعليم .. وهكذا .

والدراسة الفاحصة للفعل " رب " توقفنا على الاشتراك الواضح بين النبات والألوهية والعملية التربوية ، إذ يقال : ربأت الأرض رباء : زكت وارتفعت . وقرئ : (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ، أى ارتفعت (٦٩) . وقال الزجاج : ذلك لأن النبات إذا هم أن ينظر ارتفعت له الأرض . أما " الرب " فهو الله عز وجل هو رب كل شئ أى مالكة ، ورببت القوم ، سستهم ، يقول الأنباري : الرب ينقسم إلى ثلاثة أقسام : يكون الرب المالك ، ويكون الرب السيد المطاع ، قال الله تعالى : (فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْراً) أى سيده ، ويكون الرب : المصلح ، رب الشئ إذا أصلحه ، ورب ولده ، والصبي يربه ربا ، ورببه تربييا وتربة (عن اللحياني) بمعنى رباه ، وفى الحديث : لك نعمة تربها ، أى تحفظها وتراعيها وتربيها كما يربي الرجل ولده (٧٠) .

ومن هنا نجد حرص القرآن الكريم فى استخدام ما يتصل بالنبات والفلاحة والرى لا للحديث عنها فى حد ذاتها ، ولا لإعطاء معلومات عن تركيبها وإنما بهدف

إظهار قيم تربوية ويقصد تعليم الناس أساليب سلوكية ، ولعل الأمثلة التالية توضح لنا هذا بما لا يدع لنا مجالاً للشك .

- يقول تعالى : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (٧١) .

لقد كان اليهود بين الصحراء بجذبها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها ، فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى : عسلا وطيرا ، ولكن البنية النفسية المفككة ، والحيلة الهابطة المتداعية ، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا في الصحراء . لقد أخرجهم الله - على يدي نبيهم موسى عليه السلام - من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعفة ، وللحرية ثمن وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ولا يريدون أن يدفعوا الفدية حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم ، وأن يكتفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة . إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر ، يريدون العدى والثوم والبصل والقتاء .. وما إليها . وهذا ما يذكرهم القرآن به ، وهم يدعون في المدينة دعواهم العريضة التي في الآية (٧٢) وقد تلقى موسى عليه السلام طلبهم بالاستنكار :

(أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ) .

إما بمعنى أن ما يطلبونه زهيد وهين لا يستحق الدعاء ، فهو موفور في أى مصر من الأمصار فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها .. وإما بمعنى : عودوا إلى مصر التى أخرجتم منها .. عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة ، إلى حياتكم الخائفة الذليلة .. حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! ودعوا الأمور الكبار التى ندبتم لها .. ويكون هذا من موسى عليه السلام تأنيبا وتوبيخا ..

ونحن نرجح مع سيد قطب هذا التأويل الذى استبعده بعض المفسرين ، نرجحه بسبب ما أعقبه من السياق من قوله تعالى (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) ، فان ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وعودتهم بغضب الله ، لم يكن من الناحية التاريخية - فى هذه المرحلة من تاريخهم ، وإنما كان فيما بعد وقوع ما ذكرته الآية فى ختامها (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) ، وقد وقع هذا منهم متأخرا بعد عهد موسى بأجيال ، إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبة لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء فناسب أن يكون قول موسى لهم (اهبطوا مصرا) هو تنكيرهم بالذل فى مصر ، وبالنجاة منه ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التى ألفوها فى دار الذل والهوان (٧٣) .

- ويقول تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٧٤) .

لقد هدانا الله هنا إلى أن نقصد بأعمالنا أمرين :

أولهما : ابتغاء رضوانه لذاته تعيدا له .

وثانيهما : تركية أنفسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال ، كالبخل والمبالغة فى حب المال ، على أن هذا وسيلة لذلك وفائدة كل من الأمرين عائدة علينا والله غنى عن العالمين .

وقد عرف بالاختيار أن الأرض الجيدة فى المواقع المعتدلة يكفيها القليل من السرى لرتوبة ثراها وجودة هوائها ، فإن الشجر يتغذى من كما يتغذى من الأرض ، ووجه الشبه عندنا أن المتفق ابتغاء مرضاة الله والتثبت من نفسه ، هو إخلاص وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة بره وحسنه فهو وجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قال أنفق منه بقدره ، فخيره دائم وبره لا ينقطع ، لأن الباعث عليه ذاتى لاعرضى كأهل الرياء وأصحاب المن والإيذاء (٧٥) .

وينقل رشيد رضا عن محمد عبده فى شرحه للآية : أن النية الصالحة فى الإنفاق كالوابل للجنة فيها تكون النفقة نافعة للناس لأن أصحابها يتحرون فيضعون نفقتهم موضع الحاجة لا يبذرون بغير روية . ثم قال عند ذكر الطل : أى أن أمثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم لأن رحمة قلوبهم لا يغور معينها ، إن لم تصبه بوابل من عطائها لم يفنه طله فهم كالجنة التى لا يخشى عليها اليبس والزوال ، وقد ختم الآية بقوله عز وجل (والله بما تعملون بصير) ليذكرنا بأنه لا يخفى عليه المخلص من المرأتى تحذيرا لنا من الرياء الذى يتوهم صاحبه أنه يغش الناس بإظهاره خلاف ما يضمركأنه يقول : إن الله لا يخفى عليه ما تتطوى عليه سريرتك أيها المنفق فعليك أن تخلص له (٧٦) .

والقرآن الكريم يعتمد على هذا التقابل المتناظر بين العالمين لكى يضرب بدنيا النبات الأمثال فيمنحنا - بذلك - المزيد من التعاليم الحية المؤثرة مما نشهده فى هذا العالم الطريف (٧٧) .. عطاء المنافقين وعطاء المؤمنين ، هنا كأرض صخرية مغطاة بطبقة دقيقة زائقة من التراب لا يزيداها المطر إلا تعرية وبقرا .. وهذه رواب خصبتها واعدة يعينها المطر على المزيد من التدفق .. والمنح .

(.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْإِذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (٧٨) .

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .. هذه تزهو وتسمن وتمنح .. وتلك كومة من أعجاز خاوية لا جنور لها فى الأرض ولا تمنح شيئا .. والكلمة (فعل) والتزام ومسئولية .. ومن ثم تعرف كيف يكون مردود هذا الفرق الحاسم بين الطيب والخبيث فى مواقف الإنسان وفى تاريخه على السواء . (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) (٧٩) .

وثمة لقطة متشابهة ولكن الضوء مسلط هنا على الجماعة . وكان هناك مسلطا على الكلمة والأمر سواء ! (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) (٨٠) .

وحركات الإيمان فى العالم التى جاء الأنبياء عليهم السلام لكى ينظموها وينطلقوا بها لتغيير العالم ، كانت تبدأ دائما بداية بسيطة ، ضعيفة .. قلة محاصرة وسط أكثريات ساحقة تسعى لتدميرها ، ولكنها ما لبثت - بإرادة الله - أن تستوى على سوقها وأن تأخذ الزمام وتتحكم فى التاريخ .. وليس أروع من الزرع مثلا لهذا السنو الجرى الذى يبدأ ضعيفا هشاً ثم ينتهى إلى الرسوخ فى أعماق النفس والعالم (٨١) .. ومن ثم يصف القرآن المؤمنين بأن (.. وَمَثَلُهُمْ فِي الْأَنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) (٨٢) .

- ويقول تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِيثِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كَلِمَاتٍ الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَقَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُئِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا) (٨٣) .

فها هنا نجد أن الله سبحانه وتعالى فى هذه الصورة الفنية الرائعة يريد أن يتيقن الناس عن طريق الأمثلة والشواهد أن الذى يغره غناه فيحيد عن الطريق السوى لايد

أن يسلم الله عليه ، ما يذهب بأسباب الخور وعوامله . ويختار سبحانه عز وجل كمظهر من مظاهر الغنى أن يكون للإنسان حدائق ومزارع وبساتين بها الأنهار الجارية والثمار اللبنة ، وإذا كانت هناك مظاهر أخرى للغنى إلا أنه ركز على هذا المظهر بالذات لأن الذين يقرعونه ويسمعونه أولا وهم عرب الجزيرة يعيشون بيئة يقل فيها هذا المظهر ، فالصحراء تحيط بهم من كل جانب والمياه شحيحة ومن ثم فلربما فاق نهر صغير أو بستان متواضع قيمة أموال ضعف ثمنه فى مناطق أخرى .

لقد كان لصاحب هاتين الجنتين ثمر كثير أثمرته جنتاه ومزرعته ومواشيه التى تعيش فى المزرعة وأموالها مثمرة غير معطلة فكل نعيم الدنيا قد منحه فما الذى ينتظر من مثل هذا ؟ قال لصاحبه وأخيه المؤمن وهو يراجع فى الكلام ويحادثه مفاخرًا بنعمته : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . مالى أكثر من مالك وعشيرتى وخدمى وحشمى تشد من أزرى وتجعلنى فى عزة ومنعة . طغى المغرور وبغى ما صنع كسر قلوب الفقراء واقتخر بماله وعشيرته (٨٤) .

وهو إذ ينظر تيتها وإعجابا بما تحويه الجنتان يقع فى وهم عظيم : فمن أين يأتيتها الدمار والبوار ؟ وهكذا تجر الغفلة إلى غفلات وتصبح نفسه معتمه مغلفة بأغلفة سوداء تمنعه من الاستفادة بنور العلم والإيمان ، ثم يسترسل فىقول : " وما أظن القيامة آتية كما تدعى أيها الأخ ، ولو فرضنا جدلا أنها قائمة وأقسم : لئن رددت إلى ربى لأجدن عنده جنة خيرا منها أرجع إليها وأعيش فيها منعما كما أعيش فى الدنيا ..."

هذا كلام من طغى وبغى .

ولكن الله العزيز القدير لم يلبث أن أرسل على جنتيه صواعق من السماء فدمرت وأصبحت أرضا جرداء ملساء لا ثمر ولا شجر ولا زرع ولا ضرع ، فصار يقلب كفيه نادما ومتحسرا على ما ضاع منه من أموال أنفقها فى عمارتها وزراعتها وصيانتها !!

.. وفيها منافع للناس :

إن عالم الزراعة يغطي بعطائه الزاخر السخي حاجات بنى آدم المادية ومطامحهم الروحية على السواء .. والقرآن يشير إلى هذا وذلك ، فهو يعرض في أكثر من موضع لأهمية النبات القسوى والماء كمادة للحياة البشرية : طعاماً وتدفئة ولباساً ، ويدعو بنى آدم إلى الأفادة من هذه المنحة الآلهية لاشباع ضروراتهم .

١- (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (٨٥).

٢- (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ..) (٨٦) .

٣- (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٨٧).

٤- (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) (٨٨) .

٥- (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَنْتُمْ فَذُرُّوهُ فِي سَنِيهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنَ الْبَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ) (٨٩) .

٦- (وَالْأَرْضُ مَدَنْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزَلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (٩٠) .

٧- (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٩١) .

٨- (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (٩٢) .

٩- (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِنَاءٍ تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ وَصَبغٌ لِلْأَكْلِينَ) (٩٣) .

١٠- (أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (٩٤) .

١١- (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ ؟) (٩٥) .

١٢- (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) (٩٦) .

١٣- (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) (٩٧) .

١٤- (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ؟ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاعًا لِلْمُقْوِينَ) (٩٨) .

١٥- (أَفَلَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، نَأْ صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَبْنَا وَقَضَبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غَلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، نَمَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (٩٩) .

وبدراسة هذه الآيات ، نجد جملة فوائد للنبات والمياه وما يتصل بها من عمل الفلاحة كما يأتي:

* فإذا كان الله سبحانه وتعالى يشير إلى بنى إسرائيل فى الآية الأولى ، إلا أن هذه الإشارة تتضمن نعمة إلهية عندما تتكاثف السحب فى بعض الفترات فى المناطق الصحراوية . ففضلا عما قد تبشر به من سقوط الأمطار ، فهى تظلل الناس وتحميهم من لهيب الشمس .

* وإذا كانت الزروع تفيد كمادة للأكل ، فبعضها يفيد كمعروشات كما ترى فى الآية الثانية مثل الكرم ، فمنه ما يعرش ومنه ما يترك متبسطا على الأرض ، وكله من جنس المعروشات التى أودع الله فيها خاصية التسلق والاستمسك بما تتسلق عليه من عريش مصنوع أو شجر أو جدار ونحوه .

وقد كرر عز وجل بما يلفت النظر ، أهمية الظلال ، ودورها فى توفير الراحة للبشر ، فهى ليست نعمة فى الدنيا فقط ، بل وفى الآخرة كذلك ، فهو يجعل للظلال فضلا كفضل البصر والنور كما فى قوله تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور) فاطر / ١٩-٢٠

وحيثما يصف المولى سبحانه وتعالى بعض نعم الجنة يقول جل شأنه (فى سدر مخضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة) الواقعة / ٢٨-٣٣

وحيثما تحدث الله تبارك وتعالى عما يصيبه أصحاب الجنة من الخير قال : (. . . لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) النساء / ٥٧

أما عن الظلال كأحد أوصاف الجنة ، فيقول الله تعالى فى ذلك (تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ٠٠٠) الرعد / ٣٥ ، ويقول كذلك (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) يس / ٥٦ ، ومن هنا يبرز السؤال : أليس من يمنع الحياة عن الأشجار والنباتات التى يتوفر لها الظل والخير إنما يرتكب جريمة فى حق البشر ويتكبر لنعمة من نعم الله ؟ (١٠٠) .

أو ليس التلوّث الذى يحول دون سلامة الأشجار والنباتات هو قضاء على مصدر الغذاء والظلال وحرمان للناس منهما ؟

* كذلك يشير سبحانه وتعالى فى الآية الثانية من القائمة ، وفى كثير غيرها إلى " أكل الثمار " ، والأمر هنا للإباحة أى بعد أن إذن الله تعالى عباده بأنه هو الذى أنشأ لهم ما فى الأرض من الشجر والنبات الذى يستغنون منه أقواتهم ، إذنهم بأنه أباحه لهم كله وليس لأحد غيره أن يحرم شيئاً منه عليهم إلا لعلة قاهرة كما فى حالة المرض مثلاً (١٠١) . وقوله (إذا أثمر) لإفادة أن أول وقت إباحة الأكل وقت اطلاق الشجر الثمر والزرع الحب لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأنع ، فالكرم ينتفع بثمره حصرماً فعنبا فزيبيا . والنخل يؤكل ثمره بسرا فطربا فتمرا . والقمح يؤكل حبه فريكا قبل ببسه وأكله برا مطبوخا أو طحنه وجعله خبزا .

* وفى الآية الخامسة نجد تلك الحقيقة التى تتأكد فى عديد من الآيات ، الزرع هو مورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر ، والمطر والإنبات ، كلاهما يتبع السنة التى فطر الله عليها هذا الكون ، ويتبع الناموس الذى يسمح بنزول المطر وإنبات وخروج الثمر ، وموافقة هذا كله للإنسان ، وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجهزته وظواهره فى إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء .. والناس يسمعون كلمة (الرزق) فلا يتبادر إلى إذهانهم إلا صورة الكسب للمال . ولكن متول " الرزق " أوسع من ذلك كثيرا ، وأعمق . إن أقل " رزق " يرزقه الكائن الإنسانى فى هذا الكون يقتضى تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناقسة التى لولاهما ، لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ، ولم تكن له بعد وجود حياة وامتناد . ويكفى ما ذكر فى هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله ... وسخر لكم الأنهار تجرى فتجرى الحياة ، وتفيض فيفيض الخير ، وتحمل ما تحمل فى جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات .. كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان (١٠٢) .

* وفى الآية السابعة تركيز القول على نعمة الماء الذى يأتى به المطر وفق النواميس التى خلقها الله فى هذا الكون . هذا الماء يذكر هنا كنعمة من نعم الله " لكم منه شراب " ، فهى خصوصية الشراب التى تبرز فى هذا المجال ، ثم خصوصية المرعى " ومنه شجر فيه تسيمون " . وهى المراعى التى تربون فيها السوائم ، ذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقا للجو العام بين المراعى والأنعام ، ثم الزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار .

* وفى الآية العاشرة ، يشير سبحانه إلى الأرض البور وكيف يمكن استصلاحها بالرى فهذه الأرض الميتة البور ، يرون أن يد الله تسوق إليها الماء المحيى ، فإذا هى خضراء ممرعة بالزرع النابض بالحياة ، الزرع الذى تأكل منه أنعامهم وتأكل منه أنفسهم ، وإن مشهد الأرض المجذبة فإذا هى خضراء ، إن هذا المشهد ليفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء هذه الحياة النامية واستقبالها ، والشعور بحلاوة الحياة ، والإحساس بواهب هذه الحياة الجميلة الناضرة ، إحساس حب وقربى وانعطاف مع الشعور بالقدرة المبدعة واليد الصناع التى تشيع الحياة والجمال فى صفحات الوجود (١٠٣) .

وقريب من هذا ما نراه فى الآية الثانية عشر .

* أما فى الآية الثالثة عشر ، فهناك نقف على قيمة أخرى للنبات بالإضافة إلى فوائده السابقة كظل ، وكطعام للإنسان وللحيوان والطير التى هى مسخرة كذلك للإنسان ، تلك القيمة التى تتمثل فى كونه مصدرا من مصادر الطاقة وخاصة عندما يجف ، فيستخدمه الناس لإشعال النار التى بها يحتمون من برد الشتاء ، وبها يطهون طعامهم .

* ولكنه سبحانه لا يقف عند هذا الجانب وحده ، بل يتجاوز إلى الوجه الجمالى لعالم الزراعة ، وهل أقدر من هذا العالم على منح الحياة وجهها الجميل ؟ هل أقدر منه على وضع (الديكور) الباهر على واجهة العالم ، وتلوينه وتزيينه ؟ إن الخضرة هى بحد ذاتها (جمالا خالصا) أرادت بها يد الله المبدعة أن تزين هذا

الوجود .. وحتى صنوف النبات الأخرى التى تحمل الثمر للناس تتزين هى الأخرى وتسهم فى إغناء هذا المهرجان المفتون . إنها عملة ذات وجهين .. الضرورة .. نعم ، ولكن لأبد من الجمال مع الضرورة ، فهذا هو أحد الملامح الأساسية التى تميز بنى آدم عن دونهم من الخلائق : الإحساس بالجمال والتشوف إليه (١٠٤) ، ولنتأمل معا هذه الآيات الكريمة :

- (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا (١٠٥) .

- (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (١٠٦) .

- (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (١٠٧) .

- (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) (١٠٨) .

- (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) (١٠٩) .

- (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١١٠) .

- (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ) (١١١) .

الألفاظ الخاصة بالنبات والفلاحة والرى بالقرآن :

ولعله من المفيد هنا أن نقوم بعملية حصر لمجمل الألفاظ والكلمات الخاصة بموضوعنا ومدى فى آيات القرآن الكريم :

١- الألفاظ الخاصة بالرى والفلاحة :

- أثمر : جاءت مرتان فى سورة الأنعام ، الآية ٩٩ ، الآية ١٤١

- الإنبات : جاءت بمعنى تثبت مرة فى سورة المؤمنون ، آية ٢٠ ، وبمعنى

أنبتت مرتان : واحدة فى سورة البقرة ، آية ٢٦١ ، وأخرى فى سورة الحج آية ٥ .

وبمعنى أنبتكم نباتاً مرة في سورة نوح الآية ١٧ ، وبمعنى أنبتنا ثمان مرات .
الحجر ، آية ١٩ ، الشعراء آية ٧ ، النمل آية ٦٠ ، لقمان ، آية ١٠ ، الصافات ، آية
١٤٦ ، ق . آية ٧ و ٩ ، عيسى آية ٢٧ ، وبمعنى أنبتها مرة في آل عمران ، آية ٣٧ ،
، وبمعنى تنبت مرتان في سورة البقرة ، آية ٦١ ، يس ، آية ٣٦ ، وبمعنى تنبتوا
مرة في سورة النمل ، آية ٦٠ ، وبمعنى ينبت في سورة النحل ، آية ١١ .

- بئر : مرة واحدة في سورة البقرة ، آية ١٠٢ .

- الحصاد : بمعنى حصدم ، جاءت مرة في سورة يوسف ، آية ٤٧ وبمعنى
حصاده مرة في سورة الأنعام ، آية ١٤١ ، وبمعنى حصيد ، مرتان ، واحدة في
سورة هود ، آية ١٠٠ ، وسورة ق ، آية ٩ ، وبمعنى حصيدا مرتان : إحداهما في
سورة يونس آية ٢٤ ، وأخرى في سورة الأنبياء ، آية ١٥ .

- ربت : جاءت مرتان ، إحداهما في الحج ، آية ٥ ، والأخرى في فصلت
آية ٣٩ .

- الزراعة : جاءت مادتها في عدة سور ، منها : تزرعون مرة في يوسف ،
آية ٤٧- ، تزرعونه ، مرة في الواقعة آية ٦٤ - الزارعون ، مرة في الواقعة ٦٤ -
الزراع ، مرة في الفتح آية ٢٩ .

- السقى : بمعنى رى الأرض ، جاءت مرتين ، واحدة في سورة الرعد ،
آية ١٣ ، والأخرى في سورة الفرقان ، آية ٤٩ . وقد تردت مرات عدة ولكن بمعنى
سقاية الإنسان والأنعام في أغلب المواضع .

- الطين : وردت عدة مرات ، ولكن بمعنى المادة الأولى التي خلق منها
الإنسان (١١ مرة) و (طينا) مرة واحدة .

- العيون : كمصادر للرى وردت (٩) مرات : الحجر - ٤٥ ، الشعراء -
٥٧ - ١٣٤ - ١٤٧ ، يس - ٣٤ ، الدخان - ٣٥ - ٥٢ ، الذاريات - ١٥ ، المرسلات
- ٤١ ، و(عيوناً) ، في سورة القمر - ١٢ .

- الفلاحة : جاءت فى مواضع عدة ، وفى صور شتى ، ولكن لا بمعنى الزراعة ، بل بمعنى النجاح والتوفيق والإصابة فى الفعل والبصر السليم بالطريق المستقيم .

- المطر : جاءت المادة الخاصة به فى صورة (أمطرنا) خمس مرات فى سورة الأعراف - ٨٤ ، هود ٨٢ ، الحجر - ٧٤ ، الشعراء - ١٧٣ ، النمل - ٥٨ ، الأنفال - ٣٢ . وفى صورة (فأمطر) مرة واحدة فى الفرقان - ٤٠ ، وفى صورة (مطر) أربع مرات فى سورة النساء ١٠٢ ، الفرقان - ٤٠ ، الشعراء - ١٧٣ ، النمل - ٥٨ . وفى صورة (مطرا) ثلاث مرات بسور الأعراف - ٨٤ ، الشعراء - ١٧٣ ، النمل ٥٨ . وفى صورة (ممطرنا) مرة فى سورة الأحقاف - ٢٤ .

- الأنهار : جاءت مادتها فى صورة (نهر) مرتان بسورة البقرة ٢٤٩ ، وسورة القمر - ٥٤ وفى صورة (نهرًا) بسورة الكهف - ٣٣ ، وفى صورة (الأنهار) ٤٧ مرة فى سورة البقرة ٢٥-٧٤ ، ٢٦٦ ، آل عمران - ١٥ ، ١٣٦ ، ١٩٥-١٩٨ ، النساء - ١٣-٥٧-١٢٢ ، المائة - ١٢-٨٥-١١٩ ، الأنعام - ٦ ، الأعراف - ٤٣ ، التوبة - ٧٢-٨٩-١٠٠ ، يونس - ٩ ، الرعد - ٣٥ ، إبراهيم - ٢٣-٣٢ ، النحل - ٣١ ، الإسراء - ٩١ ، الكهف - ٣١ ، طه - ٧٦ ، الحج - ١٤-٢٣ ، الفرقان - ١٠ ، العنكبوت - ٥٨ ، الزمر - ٢٠ ، الزخرف - ٥١ ، محمد ١٢-١٥ ، الفتح - ٥-١٧ ، الحديد ١٢ ، المجادلة - ٢٢ ، الصف ١٢ ، التغابن - ٩ ، الطلاق - ١١ ، التحريم - ٨ ، البروج - ١١ البيئنة - ٨ ، وفى صورة (أنهارًا) أربع مرات فى سور الرعد - ٣ ، النحل ١٥ ، النمل ٦١ ، نوح - ١٢ .

- الينابيع : كمصدر للرى جاءت مرة فى سورة الزمر - ٢١ و (ينبوعا) فى سورة الاسراء - ٩٠ .

- الحرث : جاءت مادته فى صورة (تحرثون) مرة واحدة فى سورة الواقعة - ٦٣ ، وفى صورة (حرث) ٩ مرات بالمعنى المتداول فى عالم الزراعة ، فى

سورة البقرة - ٢٠٥، ٧١، وآل عمران - ١٤-١١٧، الأنعام - ١٣٦-١٣٨، الأنبياء - ٧٨، الشورى - ٢٠.

٢- الألفاظ والكلمات الخاصة بالنبات :

- بصل : وردت مرة واحدة في سورة البقرة - ٦١.
- بقل : وردت مرة واحدة في سورة البقرة - ٦١.
- تين : وردت مرة واحدة في سورة التين - ١ .
- حدائق : وردت ثلاث مرات ، في النمل - ٦٠ ، النبأ - ٣٢ ، عبس - ٣٠ .
- رطب : وردت مرة واحدة في مريم - ٢٥.
- رمان : وردت ثلاث مرات ، في الأنعام - ٩٩-١٤١، الرحمن ٦٨.
- الريحان : وردت مرتان ، في الرحمن - ١٢ ، الواقعة - ٨٩.
- زرع : وردت خمس مرات ، في الأنعام - ١٤١ ، الرعد - ٤ ، ابراهيم - ٣٧ ، النحل - ١١ ، الفتح - ٢٩ . ووردت كلمة (زروع) مرتان ، في الشعراء - ١٤٨ ، الدخان ٢٦ وكلمة (زرعا) ثلاث مرات ، في الكهف - ٣٢ ، السجدة - ٢٧ ، الزمر - ٢١ .
- زيتون : وردت أربع مرات ، في الأنعام - ٩٩-١٤١ ، النحل - ١١ ، التين ١- ، وكلمة (زيتونا) مرة واحدة في عبس - ٢٩.
- شجر : وردت مرة واحدة في النساء - ٦٥ ، وكلمة (الشجر) ست مرات ، في النحل - ١٠-٦٨-١٨ ، يس - ٨٠ ، الرحمن - ٦ ، الواقعة - ٥٢ ، وكلمة (شجرها) مرة واحدة في النمل - ٦٠ وكلمة (الشجرة) ١٨ مرة ، في البقرة - ٢ ، الأعراف - ١٩-٢٠-٢٢ ، ابراهيم - ٢٤-٢٦ الإسراء - ٦٠ ، طه - ١٢٠ ، المؤمنون - ٢٠ ، النور - ٣٥ ، القصص - ٣٠ ، لقمان ٢٧ ، الصافات - ٦٢-٦٤-١٤٦ ، الدخان - ٤٣ ، الفتح - ٧٢ ، وكلمة (شجرتها) مرة واحدة في الواقعة - ٧٢ .

- فاكهة وردت ١١ مرة ، فى يس -٥٧ ، ص -٥١ ، الزخرف -٧٣ ،
الدخان -٥٥ ، الطور ٢٢ ، الرحمن -١١-٥٢-٦٨ ، الواقعة ٢٠-٣٢ ، عبس -٣١ ،
وكلمة (فواكه) ثلاث مرات ، فى المؤمنون -١٩ ، الصافات ، ٤٢ ،
المرسلات -٤٢ .

- ثوم : قال ابن جنى ، ذهب بعض المفسرين إلى أنه تعالى أراد (الثوم) ،
والصواب عنده : الحنطة (١١٢) . وقد وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١ .

- فناء : وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١ .

- عدس : وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١ .

- عنب : وردت مرة واحدة فى سورة الإسراء -٩١ ، وكلمة (عنباً) مرة
واحدة فى سورة عبس - ٢٨ ، وكلمة (أعناب) ٨ مرات ، فى البقرة - ٢٦٦ ،
الأنعام -٩٩ ، الرعد -٤ ، النحل -١١-٦٧ ، الكهف -٣٢ ، المؤمنون -١٩ ،
يس -٣٤ . وكلمة (أعناباً) وردت مرة واحدة فى النبأ - ٣٢ .

- نخل : وردت كلمة (النخل) ١٠ مرات فى : الأنعام -٩٩-١٤١ ،
الكهف -٣٢ ، طه -٧١ ، الشعراء ١٤٨ ، ق -١٠ ، القمر -٢٠ ، الرحمن -١١ ،
الحاقة -٧ ، وكلمة (نخلاً) مرة واحدة فى عبس - ٢٩ ، وكلمة (النخلة) مرتان فى
مريم - ٢٣-٢٥ . وكلمة (نخيل) ٧ مرات فى البقرة -٢٦٦ ، الرعد -٤ ، النحل
-١١-٦٧ ، الإسراء -٩٠ ، المؤمنون -١٩ ، يس -٣٤ (١١٣) .

الهوامش

- ١- عبد الحليم الجندى : القرآن والمنهج العلمى المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص ٤١
- ٢- زغلول النجار : النبات فى القرآن الكريم ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٣
- ٣- كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ص ٤٥ .
- ٤- المرجع السابق : ص ٤٨ .
- ٥- المرجع السابق : ص ٨٧٣ .
- ٦- المرجع السابق : ص ٨٧٤ .
- ٧- المرجع السابق : نفس الصفحة .
- ٨- البقرة ، ١٦٤ .
- ٩- سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ١١ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .
- ١٠- المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
- ١١- زغلول النجار ، ص ١٩٢
- ١٢- الرعد ، ٤ .
- ١٣- محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الكريم المسمى تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٥١ .
- ١٤- المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢-٢٤ .
- ١٥- سورة الملك ، ٢ .
- ١٦- بوكاى (موريس) : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم . ترجمة نخبة من الدعاة ، دار الكندى ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٦ .
- ١٧- طه / ٥٣ .
- ١٨- الحج / ٥ .

- ١٩- لقمان / ١٠ .
- ٢٠- الرعد / ٣ .
- ٢١- بوكاي ، ص ١٦٦ .
- ٢٢- الأنعام / ٩٥ .
- ٢٣- يس / ٣٦ .
- ٢٤- الزمر / ٢١ .
- ٢٥- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٢ ، ص ٢٨٨
- ٢٦- هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة : إعجاز القرآن الكريم فى وصف الرياح والسحاب والمطر ، مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامى ، ١٤٢٢هـ ، ص ١٠٧
- ٢٧- أحمد عبد السلام الكردانى (إعداد وتقديم عن كتابات محمد أحمد الغمراوى) : نماذج من الإعجاز العلمى للقرآن ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٨ ، ص ٧٥
- ٢٨- جلال الدين خانجى : القرآن والدورة الهيدرولوجية ، المجلة العربية ، الرياض ، السنة الثانية ، العددان ١٠ - ١١ ، شعبان - رمضان (يوليو / أغسطس) ١٩٧٨ ، ص ١٧٤
- ٢٩- بوكاي ، ص ١٥٥ .
- ٣٠- الأعراف / ٥٧ .
- ٣١- الروم / ٤٦ .
- ٣٢- الروم / ٤٨ .
- ٣٣- جلال الدين خانجى ، ص ١٧٦ .
- ٣٤- المؤمنون / ١٨ .
- ٣٥- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٥٠٤ .
- ٣٦- الزمر / ٢١ .
- ٣٧- القرطبي ، ص ٥٦٩٠ .
- ٣٨- بوكاي ، ص ١٥٥ .

- ٣٩- يس / ٣٤ .
- ٤٠- الملك / ٣٠ .
- ٤١- بوكاى. ص ١٥٧ .
- ٤٢- الكردانى ، ص ٧٣
- ٤٣- المرجع السابق ، ص ٧٤
- ٤٤- عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، دار القلم ، ط١ ، د.ت، ص ٨٥
- ٤٥- سبأ / ٩ .
- ٤٦- الذاريات / ٢٠-٢١ .
- ٤٧- الغاشية / ١٧-٢٠ .
- ٤٨- سعيد إسماعيل على : ديمقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٧٤ .
- ٤٩- الأنعام / ٩٩ .
- ٥٠- الأنعام / ٩٥ .
- ٥١- النحل / ٦٥ .
- ٥٢- الشعراء / ٧ .
- ٥٣- العنكبوت / ٦٣ .
- ٥٤- الروم / ٥٠ .
- ٥٥- لقمان / ١٠ .
- ٥٦- فصلت / ٣٩ .
- ٥٧- فصلت / ٤٧ .
- ٥٨- ق / ٩ - ١٠ .
- ٥٩- الرحمن / ١١-١٢ .
- ٦٠- الواقعة / ٦٣ - ٦٧ .
- ٦١- التين / ١ - ٢ .

- ٦٢- النبأ / ١٥-١٦.
- ٦٣- تفسير المنار ، حـ٢ ، ٥٢.
- ٦٤- محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد ١٤ ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٢-١٣.
- ٦٥- تفسير المنار ، حـ٢ ، ص ٥٢.
- ٦٦- الكهف / ١٠٩.
- ٦٧- لقمان / ٢٧.
- ٦٨- تفسير المنار ، حـ٢ ، ص ٥٣.
- ٦٩- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، د.ب، م٣ ، ص ١٥٤٦.
- ٧٠- المرجع السابق ، ص ٦٥٤٧.
- ٧١- البقرة / آية ٦١.
- ٧٢- فى ظلال القرآن ، جـ١ ، ص ٧٤.
- ٧٣- المرجع السابق ، ص ٧٥.
- ٧٤- البقرة / آية ٢٦٥.
- ٧٥- تفسير المنار ، حـ٣ ، ص ٥٨ .
- ٧٦- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
- ٧٧- عماد الدين خليل : رحلة مع دنيا النبات فى كتاب الله ، مجلة العربى ، الكويت ، السنة ٢١ ، العدد ٢٤٢ ، يناير ١٩٧٩ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
- ٧٨- البقرة / آية ٢٦٤.
- ٧٩- إبراهيم / الآيات من ٢٤ - ٢٦ .
- ٨٠- الأعراف / آية ٨٠.
- ٨١- رحلة مع دنيا النبات ، ص ٢٧.
- ٨٢- الفتح / آية ٢٩.
- ٨٣- الكهف / الآيات من ٣٢ - ٣٦.

- ٨٤- محمد عبد المنعم الجمال : التفسير الفريد للقرآن المجيد : مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٧٨٨ .
- ٨٥- سورة البقرة ، ٥٧ .
- ٨٦- سورة الأنعام ، ١٤١ .
- ٨٧- سورة يونس ، ٢٤ .
- ٨٨- سورة إبراهيم ، ٣٢ .
- ٨٩- سورة يوسف ، ٤٧-٤٩ .
- ٩٠- سورة الحجر ، ١٩ - ٢١ .
- ٩١- سورة النحل ، ١٠ - ١١ .
- ٩٢- سورة النحل ، ٦٧ .
- ٩٣- سورة المؤمنون ، ١٩ - ٢٠ .
- ٩٤- سورة السجدة ، ٢٧ .
- ٩٥- سورة سبأ ، ١٥ - ١٧ .
- ٩٦- سورة يس ، ٣٣-٣٦ .
- ٩٧- سورة يس ، ٨٠ .
- ٩٨- سورة الواقعة ، ٧١ - ٧٣ .
- ٩٩- سورة عبس ، ٢٤ - ٣٢ .
- ١٠٠- زغلول النجار ، ص ٢٦٥
- ١٠١- تفسير المنار ، ج ٨ ، ص ١١٨ .
- ١٠٢- فى ظلال القرآن ، ج ١٣ ، ص ٢١٠٧ .
- ١٠٣- المرجع السابق ، ج ٢١ ، ص ٢٨١٥ .
- ١٠٤- رحلة مع دنيا النبات ، ص ٢٨ .
- ١٠٥- سورة النمل ، ٦٠ .
- ١٠٦- سورة ق ، ٧ .
- ١٠٧- سورة ق ، ٩-١٠ .

- ١٠٨- سورة الرحمن ، ١٠-١٢ .
- ١٠٩- سورة النبأ ، ١٥-١٦ .
- ١١٠- سورة الأنعام ، ٩٩ .
- ١١١- سورة النحل ، ١٣ .
- ١١٢- لسان العرب ، ج٥ ، ص ٣٤٩١ .
- ١١٣- محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٧٨ . صفحات متفرقة .